لغة – كلام الاستلام: 2026/06/29 القبول: 2026/10/10 النشر: 2026/11/26

تَشَظِّي الذَّات وَمَسَارَات الفَقْد فِي رِوَايَة "أَحْلَامٌ عَلَى أَجْنِحَةِ السَّرَاب لِإِلهَام بَلحَاج مُقَارَبَةٌ نَفْسِيَّةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ

✍ مليكة بن قومار
جامعة غرداية – الجزائر
Benkoumar.malika@univ-ghardaia.edu.dz

ملخص البحث

تجسد هذه الورقة البحثية مظاهر تشظّي الذات ومسارات الفقد في رواية «أحلام على أجنحة السراب» لإلهام بلحاج، وفق مقاربة نفسية-اجتماعية؛ حيث نهدف من خلالها للكشف عن آليات التفكك النفسي الناتجة عن اصطدام الذات بالمنظومة الاجتماعية والطبقية، وتتبُّع مآلات هذا الصراع وتأثيره على الاستقرار الوجودي للشخصيات.

وقد خلصت الدراسة إلى أن تشظّي الذات يمر عبر سيرورة تراكمية تبدأ بفقدان الأمان الاجتماعي، وتتفاقمه بفعل الاغتراب، وصولا إلى ذروته بانهيار الجسد وفاجعة الموت. وقد أثبتنا من خلال النتائج أن المرض في الرواية لم يكن مجرد عارض عضوي، بل تجلٍّ نهائي لانكسار الذات أمام قسوة البنى الاجتماعية، حيث عمّقت التضحية العاطفية (بإخفاء المعاناة) من حدة الفقد وتأثيره الصادم على الشريك. كما بيّنت النتائج أن القمع الطبقي هو المحرك الأساس لهذا المسار التراجيدي الذي قاد في النهاية إلى تقويض الهوية الإنسانية وتفككها.

()تشظي الذات، الفقد، أحلام على أجنحة السراب، مقاربة نفسية، اجتماعية.

LOUGKA - KALAM Reçu le: 29/06 / 2026 Accepté le: 20/10 / 2026 Publié le: 26/11 / 2026

The Fragmentation of the Self and Trajectories of Loss in "Dreams on the Wings of Mirage" by Ilham Belhadj(A Psycho-Social Approach

✍ Malika BENKOUMAR
Benkoumar.malika@univ-ghardaia.edu.dz
University of Ghardaia / Algeria

ABSTRACT:

This research paper embodies the manifestations of self-fragmentation and the trajectories of loss in "Elham Belhadj" novel, Dreams on the Wings of Mirage, utilizing a psycho-social approach. It aims to uncover the mechanisms of psychological disintegration resulting from the self's collision with social and class systems, while tracing the outcomes of this conflict and its impact on the characters' existential stability.

The study concludes that self-fragmentation follows a cumulative process beginning with the loss of social security, exacerbated by alienation, and culminating in the collapse of the body and the tragedy of death. The findings demonstrate that illness in the novel is not merely an organic symptom, but a final manifestation of the self's fracture against the harshness of social structures. Furthermore, emotional sacrifice (the concealment of suffering) deepened the intensity of loss and its traumatic impact on the partner. Ultimately, the results indicate that class oppression is the primary driver of this tragic path, leading to the undermining and dissolution of human identity.

KEYWORDS: Self-fragmentation, Loss, Dreams on the Wings of Mirage, Psycho-social approach

1.مقدمة:

تُعدّ الرواية المعاصرة فضاء خصبا لتمثّل التحولات النفسية والاجتماعية التي يعيشها الفرد في ظل واقع تتشابك فيه الضغوط الطبقية والقيود الثقافية، حيث لم يعد السرد مقتصرًا على نقل الأحداث بل أصبح أداة لكشف أعماق الذات الإنسانية في لحظات انكسارها وتحوّلها. وفي هذا السياق، تندرج رواية «أحلام على أجنحة السراب» "لإلهام بلحاج" ضمن النصوص التي ترصد مسارا تراجيديا تتقاطع فيه تجربة الحب مع الرفض الاجتماعي والهجرة القسرية وتداعيات المرض، بما يفضي إلى تفكّك تدريجي في بنية الذات.

وانطلاقا من ذلك، تطرح هذه الدراسة الإشكالية الآتية :كيف تجلى تشظّي الذات عبر مسارات الفقد في رواية «أحلام على أجنحة السراب»؟ ويتفرّع عن هذه الإشكالية جملة من التساؤلات الفرعية، من أبرزها: إلى أي مدى يسهم الصراع الطبقي في إطلاق مسار الفقد؟ كيف تتدرج تحولات الشخصية من التماسك إلى التشظّي؟ هل يُعدّ المرض سببا في الانهيار أم ذروة لمسار فقد سابق؟

وتفترض الدراسة أن تشظي الذات في الرواية لا يحدث بشكل فجائي، بل يتشكل عبر مسار تراكمي من الفقد ويبدأ بالحرمان من الاختيار نتيجة الرفض العائلي، ثم يزداد بفعل الهجرة وما تخلفه من اغتراب، ليبلغ ذروته في تراجيديا المرض التي تكشف هشاشة الذات وتسرّع انهيارها.

ويهدف هذا البحث إلى:

- ✓ الكشف عن مظاهر تشظّي الذات في الرواية .
- ✓ تتبع مسارات الفقد وتحليل تدرّجها السردي .
- ✓ إبراز أثر الصراع الطبقي في تشكيل الأزمة النفسية .
- ✓ تحليل دور الهجرة في تعميق الاغتراب وتفكك الذات .
- ✓ بيان العلاقة بين البعدين النفسي والاجتماعي في بناء التراجيديا .

ولتحقيق هذه الأهداف، تعتمد الدراسة مقاربة نفسية اجتماعية تقوم على تحليل النص الروائي من خلال رصد تمثّلات الصراع الداخلي وربطها بالسياق الاجتماعي الذي أنتجها، مع التركيز على البعد التطبيقي في استخراج شواهد النص وتأويلها.

2. مفهوم تشظّي الذات:

ينطلق التأسيس الدلالي للمصطلح من الجذور اللغوية في التراث المعجمي المعرفي؛ حيث وردت لفظة تَشَظِّي في معجم "لسان العرب لابن منظور"، تحت جذر مادة (شَ. ظَ. ى): «شَظِيَ :شَظِيَ المَيِّتُ يَشْظَى شَظًى، وفي التهذيب شَظِيًّا: انْتَفَخَ فارْتَفَعَتْ يَداهُ ورِجْلاهُ كَشَظا.... وتَشَظَّى الشيءُ: تَفَرَّقَ وتَشَقَّقَ وتَطايَرَ شَظايا..... وتَشَظَّى القَوْمُ: تَفَرَّقُوا، وشَظَّيْتُ القَوْمَ تَشْظِيَةً أَي فَرَّقْتُهُمْ فَتَشَظَّوْا أَي تَفَرَّقُوا، ومَشْظِي القَوْمُ إِذا تَفَرَّقُوا» (ابن منظور، 1994، ص434)

ولم يبتعد الجوهري في معجمه الشهير "الصحاح في اللغة" عن هذا السياق؛ إذ يُفصل القول في حقيقة الشظية وتصريفاتها وتطبيقاتها التشريحية عند العرب بقوله: «الشَّظِيَّةُ: الفِلْقَةُ من العصا ونحوها، والجمع الشَّظايا. يقال: تَشَظَّى الشئ، إذا تطاير شظايا. قال الأصمعي: الشَّظى: عُظَيْمٌ مستدِقٌّ ملزَقٌ بالذراع، فإذا تَحرَّكَ من موضعه قيل: قد شَظى الفرس بالكسر. قال: وبعض الناس يجعل الشَّظى انشقاق العصب.» (الجوهري، 1987، ص2393)

إذن نستنتج مما سبق أن مصطلح (التشظي) في أصله المعجمي يمثل عملية حركية تحول الشيء من حالة التماسك والوحدة إلى حالة الانقسام والتشتيت؛ سواء تمثل ذلك حسيا في انشقاق الأجسام الصلبة وتطاير أجزائها (كالعصا والعظم)، أو معنويا في تفكك البنية الاجتماعية وانفراط عقد الجماعة والتحول من التكتل إلى الفرقة والشتات.

ومن فضاء المادة إلى فضاء الوجدان، ينزاح مصطلح "التشظي "ليلامس أعماق الكينونة الإنسانية، وهو ما تجلى بوضوح في الرواية المعاصرة؛ إذ لم يعد الانقسام مقصورا على تفتت الأشياء أو تفرق الجماعات، بل أصبح أداة تعبيرية وفلسفية لتجسيد "تشظي الذات "كحالة وجودية حادة، فالبطل في الرواية المعاصرة يعيش حزنا داخليا كبيرا وانقساما في تفكيره، وهذا جعل الرواية نفسها لا تسير في خط زمني مستقيم، بل أصبحت تظهر في شكل مقاطع ومشاهد متفرقة تشبه تماما تمزق الإنسان وضياعه في واقعه.

وهذا الضياع النفسي لا يحدث من تلقاء نفسه، بل يأتي بسبب ضربات وصدمات متتالية يمر بها الإنسان في حياته، وهو ما نسميه "مسارات الفقد" (أو طريق الخسارات المتتابعة)، فالفقد ليس مجرد حدث بسيط ينتهي في وقته، بل هو طريق طويل يمتد ويمتزج فيه الحزن النفسي بالظروف الاجتماعية والمكانية، حتى يوصل الإنسان إلى الانهيار التام. ومن هنا، سنقوم بشرح هذه الفكرة من الناحية النظرية

3.سيكولوجية الفقد التراكمي:

إن دراسة الصدمات المتكررة والحزن الناتج عن الفقد في الرواية تعتمد على فهم العلاقة القوية بين الإنسان والأدب؛ فالرواية لا تنقل لنا المشاعر بشكل سطحي، بل تعبر عن الواقع النفسي والاجتماعي الذي

يعيشه الكاتب وتعيشه الشخصيات، إذ "أن النفس تصنع الأدب، وكذلك يصنع الأدب النفس. فالنفس تجمع أطراف الحياة لكي تصنع منها الأدب، والأدب يرتاد حقائق الحياة لكي يضيء جوانب النفس" (إسماعيل، د ت، ص 7)، ولذلك لكي نفهم الشخصية الحزينة والمأزومة في الرواية، يجب أن نتتبع كيف تظهر الضغوط النفسية والمشاكل في تصرفات الشخصيات وكلامها.

إن الانتقال من الوعي الكلي بالعلاقة بين الفن والنفس نحو تشريح بنية "الفقد التراكمي" يسوقنا مباشرة نحو دراسة المشروطية الاجتماعية والسياق البيئي المحيط بالشخصية؛ فالأزمات المتلاحقة—بدءا من انكسار الحاضنة الاجتماعية والوطن بالاغتراب والهجرة، وصولا إلى فاجعة الموت العيني للشريك الوجودي—لا تحدث في معزل عن شروط الواقع الموضوعي، بل تتخلق وتتحرك ضمن بيئة ضاغطة ومستمرة الإحباط، وفي هذا السياق، يتضح كيف أن المحيط الاجتماعي يعيد صياغة سيكولوجية البطل الروائي ويدفعه قسرا نحو مدارات التمزق؛ حيث إن القراءات السوسيولوجية والنفسية المعمقة تجاوزت الطرح الإحصائي الجاف لتمنح النقد القدرة على تقديم "وصفا حيا للصراع الاجتماعي بصوره المختلفة، ولا التطورات التي تلحق بسيكولوجية الأفراد الذين ينتمون إلى طبقات اجتماعية شتى" (السيد، 1988، ص 10)، هذا التضافر المحتدم بين فواجع الفقد الداخلي وبين الضغوط الخارجية يفقد الأزمات ميزتها كأحداث عابرة، ليحولها إلى نسق تدميري متسلسل يغير البنية الإدراكية للشخصية وتماسكها الوجودي.

ونتيجة لتلاحق هذه الصدمات وتراكمها دون منح الذات حيزا زمنيا للتكيف أو ممارسة آلية الحداد الطبيعية، ينتهي وعي البطل إلى عتبات التشظي، والاغتراب، والتشتت الكامل، وهي حالة نفسية معقدة يعجز التفسير العلمي المباشر عن الإحاطة بكل أبعادها ومجاهلها الروحية؛ وهنا تحديدا تبرز الميزة الجمالية والتحليلية الفائقة للمتخيل الروائي بوصفه المساحة الأكفأ القادرة على احتواء هذه التناقضات والصراعات الوجدانية الحادة وتجسيدها جماليا. وللوصول إلى كنه هذا التشظي النفسي وتأثيره البنائي في هندسة معمارية الرواية، يظهر بوضوح مدى الحاجة المنهجية المعاصرة لتشجيع عملية التبادل بين الجهود المختلفة في مجالي علم النفس والأدب (ليندار، 1974، ص 10) . وفي النهاية، نجد أن هذه الخسارات المتكررة تجعل البطل يفقد توازنه وتضيع هويته أمام واقع صعب يراه مثل "السراب" الذي لا يعطي أي أمل، وهذا يظهر في أسلوب الرواية من خلال تشتت الوقت وتداخل الأحداث ونهاية القصة بضياع كل شيء.

4.المقاربة النفسية والاجتماعية:

إن استخدام الطريقة النفسية والاجتماعية في تحليل الرواية هو أمر مهم جداً لفهم كيف تؤثر الظروف الخارجية والمجتمع على مشاعر الشخصيات الداخلية؛ فنحن هنا لا ندرس الحالة النفسية للأبطال بشكل

معزول، بل نرى كيف أن صدمات المجتمع والبيئة تنعكس على نفوسهم. إن هذا التمازج يهدف نظريا «إلى تصوير سمات صاحبه وخصائصه الشعورية والتعبيرية وكشف العوامل النفسية التي اشتركت في تكوينه والعوامل الخارجية كذلك » (قطب، 1990،ص2) وعندما نطبق هذا على الرواية، نرى كيف يتحول الضغط الخارجي (مثل الفروق الطبقية وقسوة القوانين الاجتماعية) إلى انكسار داخلي يغير سلوك الشخصيات ويدمرها.

يركز الجانب الاجتماعي في هذا المنهج على دراسة العلاقات بين الشخصيات في النص؛ فالأدب ليس مجرد مرآة تنقل الواقع، بل هو إعادة كتابة لمشاكل المجتمع وصراعاته الطبقية، على اعتبار «إنّ النقد الاجتماعي يفسر نوعيا كيف أنّ الكتابة حدث ذو طبيعة اجتماعية» (دحروج، 2014، ص289) تنطلق من« دراسة الأسس الاجتماعية الواقعية بعناية» (دحروج، 2014، ص288)، ويظهر هذا في الرواية من خلال تصوير قيود المجتمع (مثل الفوارق بين الأغنياء والفقراء، وتحكم العائلة، واضطرار الأبطال للهروب والسفر). فالتحليل يبحث عن الشبه بين مشاكل المجتمع الحقيقي وبين تفكير الشخصيات التي تبحث عن الاستقرار فلا تجد سوى بيئة تطردها وتفرض عليها الغربة.

وفي المقابل، يأتي الجانب النفسي ليكمل التحليل من خلال الغوص في أعماق النفس ومشاعرها الخفية (اللاشعور) لتفسير ردود أفعال الشخصيات تجاه هذه الانكسارات؛ وبما أن الأدب يعبر عن النفس الإنسانية ومشاعرها، فمن الطبيعي أن نستخدم علم النفس لفهم العمل الأدبي. ويفيدنا هذا في فحص كيف تصطدم الشخصية بصدمات قوية وفجائية (مثل خسارة الحبيب، أو مواجهة المرض والموت بعد التضحية والتعب). هنا يساعدنا علم النفس في شرح كيف تنهار دفاعات البطل وكيف يسيطر عليه الحزن والشعور بالعجز والذنب، مما يؤدي به في النهاية إلى الانعزال والضياع النفسي الكامل (دحروج، 2014، ص299.297)

إن دمج الجانبين الاجتماعي والنفسي هدفنا منه هو توضيح الرابط القوي بين ظروف المجتمع والحالة النفسية للشخصيات؛ حيث يختلط الوجع الاجتماعي مثل الغربة وتفكك الأسرة مع الصدمات النفسية الناتجة عن الموت وخسارة الأحباب، ليؤثر هذا كله على طريقة بناء القصة وتطورها. ومن خلال هذا الدمج، نستطيع رؤية المعاناة الحقيقية للشخصيات، وفي نفس الوقت نرى أملها في تغيير هذا الواقع، لكن هذا الأمل يصطدم بالخسارات المتتالية. وعندما تعجز الشخصيات عن تحقيق أهدافها ضد المجتمع، يتلخبط ترتيب الأحداث ويتحول الزمن في الرواية إلى زمن نفسي يعبر عن تشتت الشخصيات، لتنتهي الرواية بتحول أحلام الاستقرار إلى مجرد سراب ووهم يفقد معه الإنسان معنى الحياة.

وانطلاقا من هذه الرؤية النظرية، ننتقل الآن إلى الجزء التطبيقي برصد الكيفية التي تجسدت بها هذه الثنائية المنهجية داخل المتن السردي لرواية "أحلام على أجنحة السراب "للكاتبة إلهام بلحاج، وتتبع آليات تشظي الذات وتآكل هويتها أمام فواجع الفقد.

5.تفكيك المسار التراجيدي في الرواية:

نعني بتفكيك المسار التراجيدي في الرواية؛ هو رصد عتبات الفقد الأولى، والمتمثلة في أثر الرفض الاجتماعي والمنظومة الطبقية التي أحبطت تجربة الحب وحولتها إلى فقدان للأمان، وهو ما يتجلى بوضوح في:

1.5.الصراع الطبقي وقمع الاختيار:

إن تأثير الفروق الطبقية على حياة الشخصيات في الرواية لم يتوقف عند حد الفقر أو قلة المال فقط، بل وصل إلى قمع الشخصيات ومنعها من اختيار شريك حياتها، ونلمس هذا بوضوح في المشهد الذي ترفض فيه أم البطلة (زينب) والمدعوة (صوفيا) أن تلتقي ابنتها بالشاب (زيدان) لأنه من عائلة فقيرة، حيث تقول الرواية: «...فأسرعت صوفيا تدفع الباب بقوة واقتربت منها صارخة في وجهها توبخها ثم قالت:

هل تواعدين ذلك الغبي زيدان؟

وراحت تكررها لتجيبها، لكن زينب بقيت صامتة .اسمعيني، لن تتزوجي ذلك الغبي، فهو ليس من مستوانا ولا يليق بمقامك يا غبية، أبوك وأنا لن نرضى تزويجك لذلك الحقير ابن الـ.. ستتزوجين رجلا غنيا لتعيشي في ثراء، فذلك الوغد لا يملك حتى شراء قارورة عطر لك. فكيف ستعيشين معه؟ ..» (إلهام، 2021، ص22)، نلاحظ هنا الصدام العنيف بين رغبة البنت في الاختيار وقسوة الفروق الطبقية؛ فكلام الأم "صوفيا" يعبر عن تفكير الأغنياء الذين يرون أن العلاقات الإنسانية تُقاس بالمال فقط، وأن المال هو المعيار الوحيد لقيمة الشخص. لذلك، تم رفض الشاب زيدان ليس لِعيب في أخلاقه، بل لأنه فقير ولا يملك الثروة التي تناسب هذه العائلة. ومن الناحية النفسية، يتحول هذا الضغط الخارجي إلى قهر لشخصية الابنة "زينب"؛ فعنف الأم اللفظي يهدف إلى كسر إرادتها، وصمت زينب يعبر عن الصدمة القوية وبداية انكسارها وحزنها الداخلي بسبب سلطة الأهل والمجتمع.

وفي مشهد آخر يوضح حالة الحزن والقهر التي يمر بها البطل "زيدان"، تقول الرواية: « جلس زيدان في طاولة أمام النافذة وبدا شارد الفكر، وأحس رأسه ثقيلا عليه، لم ينل قسطا من النوم، الليل بأكمله وهو يفكر بحاله مع زينب، وما يفعل إنه يحبها ويريد أن يكمل حياته معها، ومن جهة أهله وأهلها رافضون تماما أمر زواجهما..» (بلحاج، 2021، ص31)، نلاحظ هنا كيف يختلط القهر الاجتماعي بالانكسار النفسي داخل ذات (زيدان)؛ فالرفض القاطع من الأهل يقف حاجزاً أمام حبه، وينعكس هذا الضغط الخارجي

على نفسه ليسبب له الشرود وثقل الرأس والأرق وقلة النوم. وهي علامات واضحة على عجز الشاب وضياعه بين حبه لزينب وبين رفض المجتمع الصعب من حوله.

وهذا القهر الطبقي لا يأتي من عائلة "زينب" فقط، بل يظهر أيضاً من داخل عائلة البطل نفسه؛ حيث تحاول أمه أن تجبره على ترك زينب والزواج من ابنة خالته "مباركة" تماشياً مع تقاليد العائلة. وينعكس هذا الضغط على نفسيته خاصة عندما يحذره صديقه "يوسف" أثناء جلوسهما في المقهى، حيث يقول له: «...علاقتك مع زينب، هي علاقة مستحيلة لأن أباها لا يعرف الرحمة في صدره، لأنه صاحب جاه سيفعل أي شيء، ليلحق بك الأذى، فما أقوله لك يا صديقي حاول أن تبتعد عن زينب فهي ليست لك، وأرضى بمكتوبك، فلعل زواجك من ابنة خالتك سينسيك زينب. جمد زيدان كتمثال لا يتحرك، وراح خياله يأخذه إلى مفترق الطرق، إنه يرى زواجه من مباركة سيكون جحيما لا يستطيع الإفلات منه، متمتما: في حياة كل منا سجن، فهناك سجين الأفكار، سجين الصمت، فالمجتمع كالقاضي هو الذي يطعنك ويقول لك أنا بالمرصاد... » (بلحاج، 2021، ص 33).

يوضح هذا المقطع قمة الصدام بين سلطة المال والمجتمع وبين عجز الشاب؛ فالجانب الاجتماعي يظهر في كلام الصديق الذي يرى أن الحب مستحيل، بسبب نفوذ والد (زينب)، ومحاولة فرض الزواج التقليدي من ابنة الخالة. ونفسيا، ظهرت الصدمة على زيدان الذي (جمد كتمثال) وأصبح يرى الزواج الإجباري كأنه جحيم، ليعبر في النهاية عن حزنه ويرى أن المجتمع أصبح مثل السجن والقاضي الذي يمنع حريته ويدمر راحة باله.

وفي مشهد آخر تنتهي قصة الحب تماما ويفقد الأبطال شعورهم بالأمان الاجتماعي عندما تخبر (زينب) زيدان بأن والدها قرر تزويجها لشخص آخر غني، وتصف الكاتبة ذلك قائلة: «...أمسك بيدها وقال لها: مابك حبيبتي؟ ماذا حدث؟ لما وجهك مصفر؟ وعيناك منتفختان، أكنت تبكين؟ ظلت تلتزم الصمت... قالت: زيدان، أريد أن أخبرك أن أبي سيزوجني لغيرك، صدم بما قالت له، قام وظل واقفا دون حركة ثم قال: ما، ما، ما، ماذا، ماذا؟ ماذا تقولين؟ لا، لا، لا... لا يمكن، كيف هذا؟ ... مدَّ يده فمسح دموعها وقال: لا تحزني، لن يستطيع أن يزوجك لغيري... أمسكها من يدها، وراح يجرها بسرعة دون أن تعرف إلى أين سيأخذها، خرجا من المشفى واتجه نحو سيارته... وانطلق بقوة، كأنه هرب من شيء... » (بلحاج، 2021،ص 70-71)، يلخص هذا الحدث الصدمة الكبيرة بين واقع المجتمع القاسي ورد فعل الأبطال؛ فالأب استخدم سلطته وفرض الزواج الإجباري، مما حرم الأبطال من الأمان وأفسد خططهم. ونفسيا تسببت الصدمة في شلل حركة البطل (وظل واقفا دون حركة)، وظاهر ضياعه وخوفه في التأتأة والكلام المقطع والإنكار، وينتهي المشهد بالهروب السريع بالسيارة، وهو تصرف يعبر عن رغبتهما في الابتعاد تماماً عن هذا الواقع الاجتماعي الصعب والمحبط.

2.5.الهجرة القسرية وتعميق الاغتراب (تدرّج التشظّي):

تبدأ هذه المرحلة عندما يفكر الأبطال في الفرار كحل أخير للتخلص من قهر الأهل والمجتمع؛ حيث يخطط (زيدان) و(زينب) للهروب والسفر إلى أوروبا ليعيشا معاً في أمان بعيداً عن محاولات تفريقهما، وتقول الرواية في هذا المقطع: «...رفعت زينب بصرها إليه وقالت بنبرة باكية حزينة وهي تجلس منكسة على الكرسي :ماذا تقول؟ هل جننت؟ إن أبي سيقتلنا، حتما سيقتلنا .رد بحسرة وألم :لا خيار أمامنا سوى الهروب بعيدا، وهناك لن يجدنا أحد، وسينصاعون تحت الأمر الواقع، حتما سيقبلون قرارنا ولن يعترضوا عليه، ظلت صامتة وعلى ملامحها بدا الذهول واضحا واصل ثورته قائلا: هل فهمت كلامي عزيزتي؟ أخرجت زينب من حقيبة يدها منديلا ورقيا لتمسح به دموعها، نظرت إلى زيدان، كانت بين الارتياح والارتباك، ثم قالت بحزن : لو كان العالم في طريق وأنت في طريق آخر فسوف أسير بطريقك دون تردد ودون لحظة ندم مهما كانت النتائج .قاطعها قائلا: إن كنت حقا تحبينني فلا تبتعدي عني، واهربي معي.... » (بلحاج، 2021، ص77)، إن قرار الهروب المليء بالخوف والدموع يوضح أن السفر هنا ليس اختيارا حرا للتنزه، بل هو هجرة إجبارية بسبب الرعب من عواقب رفض الأهل وقسوة المجتمع، هذا الهروب، وإن كان يبدو كأنه حل للمشكلة، إلا أنه يمثل البداية الحقيقية لزيادة ضياع النفس وتشتتها؛ فالأبطال يقطعون صلتهم ببيئتهم وأوطانهم ليدخلوا في عالم الغربة، مما ينقل المشكلة من صراع خارجي مع الأهل إلى صراع داخلي وحزن عميق بسبب فراق الوطن.

وفي مقطع آخر يوضح لحظة السفر الفعلية، يجسد نقطة التحول السلوكي الحاسمة في مسار البطلين تقول الرواية: «ظل صامتا لدقائق ثم مد يده ووضعها على رأس زينب، قالت له بهدوء :أنا على يقين من أن الصواب هو أن نكون سويا مهما كان الثمن، ولكني أشفق على والدي عندما يكتشفان أنني تركتهما ورحلت، فهما لا يملكان في هذه الدنيا غيري، فهل تدرك كم سيكون الأمر صعبا جدا عليهما؟ ثم نظرت في عينيه وأمسكت بيده كغريق يتعلق بقشة، وقالت بنبرة حملت كل ما بها من ضعف :أرجوك، ثم رفعت يده إلى فمها وقبلت باطنها وأكملت :لا تجعلني أندم في يوم من الأيام، فأنا لا أملك أي شيء في كل هذا العالم سواك أنت فقط، حول زيدان عينيه عن الطريق ونظر إليها وقال: وأنا لا أملك أي شيء في هذا العالم إلا أنتِ، وإن كنتِ تخليتِ عن والديك، فأنا تخليت عن عالمي بأكمله ولست نادماً .ثم أعاد نظره إلى الطريق، وفتحت هي النافذة لتدخل... » (بلحاج، 2021، ص79)، هنا تظهر بداية الانفصال الحقيقي عن الوطن والبيت، حيث تختلط مشاعر الحب بقسوة الفراق. ونفسيا، يظهر انقسام نفسية زينب وشعورها بالذنب تجاه والديها وتصفها الكاتبة مثل (غريق يتعلق بقشة)، مما يوضح ضياع أمانها واعتمادها الكامل على حبيبها، في حين يعلن زيدان تضحيته بكل شيء وتخليه عن عالمه القديم.

ورغم أن البطلين نجحا في السفر والوصول إلى (إسبانيا) واستقبلهما صديق (زيدان) وساعده في العمل بالمستشفى، ورغم أنهما حاولا الاستقرار والاندماج من خلال التنزه وزيارة المتاحف، إلا أن هذا الاستقرار الظاهري لم يحمِ نفوسهما من التفكك والحزن؛ فسرعان ما تشتت هذا الأمان عندما عرف الأهل بخبر هروبهما، وكانت الصدمة الكبرى هي وفاة والدة (زيدان) بسبب حزنها عليه. هذا الخبر المؤلم الذي تلقاه زيدان وهو في الغربة جعل الاغتراب أشد قسوة؛ فلم يعد البعد مجرد مسافة جغرافية، بل تحول إلى جرح نفسي عميق زاد من ضياع الأبطال، وأثبت أن البعد عن الأهل يظل يلاحق الإنسان ويحرمه من السعادة، محولاً نجاحه الظاهري إلى عزلة نفسية خانقة.

6.ذروة المسار التراجيدي (سيكولوجية المرض وفاجعة الموت):

لا يتوقف ضياع النفس عند حدود الغربة المكانية، بل تتجه القصة نحو نهاية حزينة ومحتومة تشكل قمة المأساة، وهي مرحلة المرض والموت، حيث يتحول جسد البطلة إلى مكان للألم والانهيار التام، ويبدأ هذا بـ:

1.6: التضحية العاطفية (إخفاء المعاناة):

يتحول كتمان المرض وإخفاؤه من طرف (زينب) في الغربة إلى وسيلة لحماية حبيبها (زيدان) من الحزن والانهيار؛ لكن هذا الكتمان زاد من تعبها الداخلي وضياعها النفسي، ويظهر ذلك في اللحظة الأولى لاكتشاف المرض:«....فجأة أحست زينب بصداع في رأسها، خطت عدة خطوات ثم سقطت عل الأرض، هرعت ماريا تنحني عل ركبتيها لتساعدها عل النهوض ورمت أكياسها أرضا، ثم صرخت ...زينب، زينب، ما بك؟ أفيقي أرجوك، كان قد أُغمي على زينب، التم ناس حولها، فطلبت منهم ماريا أن يتصلوا بالإسعاف، وبسرعة أخذوها إلى المشفى... دخلت زينب، طلب منها الطبيب أن تجلس... أخبرها أن نتيجة التحاليل تبين من خلالها أنها تعاني من ورم خبيث في رأسها، وأنه انتشر بنسبة كبيرة... وقع الصدمة كان كبيرا... هو أنه لن تتمكن من الإنجاب كما أخبرها الطبيب....» (بلحاج، 2021، ص117-118)، يوضح هذا المشهد الانهيار الكبير للبطلة؛ فالإغماء يثبت أن التعب النفسي والكتمان بدأ يظهر على الجسد، وتظهر الصدمة في معرفتها بالإصابة بالسرطان وهي في الغربة، مما جعلها عاجزة أمام الموت، وتكتمل المأساة بمعرفتها أنها لن تنجب (العقم). هذا الانكسار المزدوج (المرض والعقم) هو الذي جعلها تخفي المرض كآلية دفاعية لحماية زيدان، رغم أن هذا الكتمان فرض عليها عزلة نفسية صعبة جدا.

وفي مشهد آخر عندما خرج البطلان معا، نجد كيف انكشف هذا السر وتسبب في صدمة جديدة، حيث تقول الرواية: «....قال لها: -هيا نذهب، لقد ازداد الطقس برودة... حبيبتي، لقد صار الوقت مناسباً لننجب أطفالاً، إنني أتوق لأصبح أباً... نزل كلامه كخنجر ينغرز في قلبها، لم تستطع تمالك نفسها وامتلأت عيناها دموعا، وشعرت بثقل في رأسها... وما هي إلا لحظات حتى سقطت أرضاً... تفاجأ زيدان لما رآها طريحة على الأرض... كان يصرخ وينادي كي تفيق.... فالتم الناس من حوله واتصلوا بسيارة الإسعاف...ازداد قلق زيدان،

وهو يفكر بما سيخبره الطبيب، دخل الطبيب مكتبه... وراح يشرح له مرض زوجته، وأدرك من انفعال زوجها أنها لم تخبره بمرضها... كانت الصدمة بادية على وجه زيدان... خرج زيدان من مكتب الطبيب وهو يتلوى ألماً... ثم رن هاتفه كانت ماريا المتصلة... -ماريا، هل كنتِ تعلمين بمرض زينب؟ ... -نعم كنت أعلم... -لماذا لم تخبريني؟ -كنت أود إخبارك، لكن زينب منعتني..... » (بلحاج، 2021، ص125-127)، يكشف هذا المقطع الأثر الحزين لإخفاء المرض؛ فرغبة زيدان البريئة في أن يصبح أبا نزلت على قلب (زينب) مثل الخنجر لأنها تذكرها بعقمها ومرضها، مما جعلها تنهار جسديا في الحال. وتظهر الصدمة الكبيرة على (زيدان) عندما واجه الحقيقة المرة وعلم بمرض زوجته، ليتلوى ألما وعجزا. هذا المشهد يوضح معنى التضحية العاطفية، فالبطلة كتمت السر حماية له، برغم الألم والعزلة التي عاشتها وحدها قبل أن تنكشف الحقيقة.

2.6: تقويض الهوية:

بسبب هذا التعب الداخلي والصدمات المتتالية، تصل القصة الحزينة إلى محطتها الأخيرة وهي الموت وضياع الشخصيات تماماً من الوجود؛ فالأمر لم يعد مجرد تعب في الجسد، بل انتهى بوفاة البطلة وغيابها عن الحياة. ويظهر هذا التفكك أولاً عندما تنعزل زينب عن تفاصيل حياتها اليومية في المستشفى وتزهد في كل شيء لتواجه الموت وحيدة، تقول الرواية: «... ولسبب ما كانت أيام المشفى سعيدة بالنسبة إليها وإليه، كان يقضيان كل الوقت كزوجين، فلا توقعات، ولا تاريخ قديم، ولا أشياء ثمينة، لا بيت، لا مطبخ، لا كتب، لا شيء يعنيها أو يعنيه...»، (بلحاج، 2021، ص129)، وهنا نلاحظ اللحظة الفاجعة التي يتحول فيها الجسد من مكان للحب والأمل إلى مستسلم للموت؛ إذ يعلن الانتقال المفاجئ من الابتسامة إلى الشهقة الأخيرة والسكون التام النهاية الكاملة لحياة البطلة، حيث تظهر ذروة هذا الانهيار في استسلام (زينب) وعجز الأطباء والأجهزة الطبية عن إنقاذها وإعادتها للحياة، كما تروي الكاتبة: «...وفجأة تدهورت حالتها، وراحت تسعل بشدة، ثم شهقت بعد ابتسامتها شهقة خرجت معها روحها. راح زيدان يناديها، فلم تستجب له... كانت زينب ساكنة وعيناها مغمضتين، لقد توقف قلبها... ووضع الموصل على صدرها، وكرر محاولاته لكن دون جدوى فقد استسلمت زينب...» (بلحاج، 2021، ص129)

ولا يتوقف هذا الانهيار عند حدود موت (زينب) فحسب، بل يمتد ليدمر حياة زوجها (زيدان) نفسيا وجسدياً؛ فموت حبيبته تسبب في ضياع حلمهما المشترك وزاد من غربته وحزنه في المنفى، ليتحول البطل بدوره إلى إنسان منكسر وضائع يفقد الرغبة في الحياة ويظهر عليه التعب والشحوب، مما يعلن نهاية قصتهما معاً واقتلاعهما من الوجود، وهو ما يصوره المقطع الأخير: «...وانتهى به الأمر أن خرج من الصدمة رافضاً كل معاني الحياة... مرت الأيام تلو الأيام، انطفأ عود زيدان من حمل لا يستطيع تحمله، بهت وجهه،

وذبلت عيناه، واختفت الابتسامة من على شفتيه، فحلمه ضاع، وماتت من تحدى العالم لأجلها أصبح زيدان كوردة قطفت من بستان ذبلت وماتت...» (بلحاج، 2021، ص130)

وهكذا، نرى أن الموت في نهاية المطاف لم يكن مجرد نهاية بيولوجية لجسد (زينب) المريض، بل كان هدما كاملاً للهوية الفردية والثنائية للبطلين؛ فبإطفاء شعلة حياة البطلة انمحت معالم الأمان النفسي، وتحول البطل الحي بدوره إلى ذات منكسرة تعيش اغترابا كليا وضياعا تاما في عالم خلا من وجود تائهته.

7.خاتمة:

وفي النهاية، وبناءً على ما قدمناه من تتبع وتحليل لأحداث رواية «أحلام على أجنحة السراب» للكاتبة إلهام بلحاج، بالاعتماد على الطريقة النفسية والاجتماعية، تخلص الدراسة إلى مجموعة من النتائج البسيطة والخلاصات التي تجيب عن أسئلة البحث، وهي:

- ✓ جاء ضياع نفسية البطلة (زينب) نتيجة خسارات متتالية وراء بعضها، حيث أدت كل خسارة إلى خسارة أخرى؛ بدأت بمنعها من اختيار حبيبها (زيدان)، ثم اضطرارها للهجرة والغربة، وانتهت بالمرض والموت.
- ✓ كانت الفروق الطبقية ورفض الأم (صوفيا) القاسي هما السبب الأساسي في ظهور الأزمة من البداية، حيث تحول هذا الضغط الاجتماعي الخارجي إلى حزن وكبت داخلي حرم الأبطال من الاستقرار في وطنهم.
- ✓ أظهر التحليل أن هجرة البطلين إلى (إسبانيا) لم تكن حلا حقيقيا لمشاكلهما، بل كانت اقتلاعا من الجذور زاد من عزلتهما ونقل الصراع إلى داخلهما، خاصة بعد صدمة وفاة والدة (زيدان) وهو بعيد عنها.
- ✓ تبين أن إخفاء (زينب) لمرضها وعقمها عن زوجها كان تصرفا مقصودا منها لحمايته من الانهيار والحزن، لكن هذه التضحية الكبيرة زادت من عزلتهما وعجلت بوفاتها وتعبها الجسدي.
- ✓ تمثلت قمة المأساة في موت (زينب)، والذي لم يكن موتا عاديا بل كان نهاية لآمال الأبطال، مما أحدث صدمة دمرت نفسية (زيدان) وحولته إلى شخص منكسر وضائع يرفض الحياة.
- ✓ نجحت الرواية في إظهار عجز الإنسان أمام ظروف المجتمع الصعبة والطبقية، حيث تحولت أحلام الاستقرار والحب بين (زيدان) و(زينب) إلى مجرد وهم وسراب انتهى بالموت والتفرق الكامل.

الهوامش:

- بلحاج، إلهام .**(2021)** .أحلام على أجنحة السراب، (ط 1)، دار خيال للنشر والترجمة. الجزائر
- ابن منظور، محمد بن مكرم .**(1994)** .لسان العرب (ط3 . ج14) دار صادر. بيروت
- إسماعيل، عز الدين، (د .ت)، التفسير النفسي للأدب . (ط4)، دار غريب للطباعة والنشر.

- الجوهري، إسماعيل بن حماد، **(1987)** الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية (تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار) .(ط4) .دار العلم للملايين.
- دحروج، محمد محمود ، **(2014)** .مناهج النقد الأدبي المناهج الكلاسيكية .(ط 1)، دار البداية ناشرون وموزعون. عمان.
- قطب، سيد .**(1990)** .النقد الأدبي: أصوله ومناهجه (ط **6**)، دار الشروق. مصر.
- يسين، السيد .**(1988)** .التحليل الاجتماعي للأدب (ط3)، دار التنوير للطباعة والنشر.
- ليندلاور، مارتن .**(1974)** .الدراسات النفسية للأدب، النقائص، الاحتمالات، الإنجازات، (ترجمة: شاكر عبدالحميد)